قراءة الدّكتور أبي القاسم سعد الله للتّراث اللّغوي والأدبي الجزائري
يطو عائشة، المجلد الحـادي عشـر، العدد 3، ديسمبر 2020،
ص ص 189-203

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

قراءة الدّكتور أبي القاسم سعد الله للتّراث اللّغوي والأدبي الجزائري من خلال موسوعته (تاريخ الجزائر الثّقافي)

Reading of Dr. Abi Al-Qasim Saadallah for the linguistic and literary heritage of Algeria through his encyclopedia (Algeria's Cultural History).

عائشة يطو (*)

جامعة مستغانم ، الجزائر

yettouaicha@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2019/09/07 تاريخ القبول: 2020/09/24 تاريخ النشر: 2020/12/31

الملخص:

إنّ الأمم الحيّة هي الّتي تحافظ على تراثها بشتّى الوسائل، و تسعى إلى استثماره في سبيل حلّ المشكلات القائمة، وإفادة الإنسانية منه. و ليكون ذلك لا بدّ من التّأسيس لمنهج سليم نعرض ونقرأ من خلاله هذا التّراث. نهدف من خلال هذا الطّرح إلى الكشف عن ملامح هذا المنهج عند شيخ المؤرّخين الجزائريّين أبي القاسم سعد الله في كتابه (تاريخ الجزائر الثّقافي)، وكانت مادّة الاختبار ما تعلّق بالتّراث اللغوي والأدبي شعرا ونثرا خلال العهد العثماني. فهل كان سعد الله مجرّد عارض لهذا التّراث ؟ أم كان قارئا أيضا ؟ وكيف كان منهج القراءة عند هذا الرّجل متعدّد التّخصّصات ؟

الكلمات الدالة:

التراث، سعد الله، تاريخ الجزائر، أحمد البوني .

Abstract:

It is the living nations that maintain their heritage by various means and seek to invest it in solving the existing problems and benefiting humanity from it. for this It is necessary to establish a right approach, in order to present and read this heritage.

The aim of this thesis is to reveal the features of this approach with the father of the Algerian historian Abi Qasim Saadallah in his book (Algeria's cultural history). The test material was related to linguistic and literary heritage in poetry and prose during the Ottoman period. Was Saadallah just a representing of this heritage? Or was he also a reader? And how was the reading method of this man multidisciplinary? These are some of the questions that we are trying to answer.

(*) المؤلف المرسل: يطو عائشة yettouaicha@yahoo.fr

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

Keywords: Heritage, Saadallah, History of Algeria, Ahmed Albouni.

****

الدكتور أبو القاسم سعد الله واحد من أعلام الجزائر المتميّزين، الذين كان لهم حضور قويّ في مجالات معرفية متعدّدة. وصف بالأديب المحافظ الموسوعي؛ " وهذه الموسوعية أدّت به إلى أن يكتب في معظم الهموم المعاصرة والمجالات المختلفة..."[1]. فقد صدر له أكثر من ثلاثين كتابا، إلى جانب مقالات في مجلاّت وجرائد كثيرة، داخل الوطن وخارجه؛ من ذلك : مجلة الأصالة، مجلة الثقافة، مجلة الآداب البيروتية، وجريدتا النهضة والأسبوع التونسيتان.

أمّا ما تعلّق بالكتب فنذكر على سبيل التمثيل لا الحصر:

الزمن الأخضر(ديوانه الشعري)، السعفة الخضراء (مجموعة قصصية)، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، الطبيب الرّحّالة ابن حمادوش الجزائري، منشور الهداية تأليف عبد الكريم الفكّون (تحقيق)، تاريخ العدواني (تحقيق)، الحركة الوطنية الجزائرية، حياة الأمير عبد القادر (مترجم)، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزائر وأوروبا (مترجم)، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، مسار قلم، وهموم حضارية. إنّه الشاعر الناقد، والأديب الكاتب، والمحقق المترجم، والمؤرّخ الذي تمكّن من عدّة لغات أجنبية. هذا الأكاديميّ الذي كوّن أجيالا من المثقّفين داخل الجزائر وخارجها، والرّحّالة الذي جاب الأصقاع بحثا عن المخطوطات والوثائق؛ فكان من أهمّ أعماله وأجلّها موسوعة (تاريخ الجزائر الثقافي).

نبذة عن الموسوعة:

كتاب (تاريخ الجزائر الثقافي) متميّز في مضمونه ومنهجه؛ فهو من جملة الإسهامات الّتي قدّمها سعد الله ذات " مواصفات علمية وقيمة أكاديمية "[2]. طبع عدة مرات: الطبعة الأولى من قبل الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 1981 م، و طبعة خاصة من قبل دار البصائر بالجزائر أيضا عام 2007 م ، بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية في السنة نفسها. وطبعة ثالثة من قبل دار الغرب الإسلامي، ببيروت لبنان سنة 1998 .عدد أجزاء الموسوعة عشرة؛ الأول والثاني مخصصان للفترة العثمانية (من ق 10 إلى ق 14 هـ)، أمّا الأجزاء (من الثالث إلى التاسع) فتتناول الفترة (من 1830 إلى 1954 م). وكان الجزء العاشر خاصا بالفترة (من 1954 إلى 1962 م).

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

هذا العمل الضخم، استحقّ أن يطلق عليه اسم الموسوعة؛ أوّلا للفترة الطويلة التي تناولها المؤلف بالدراسة، وثانيا لمادّته العلمية الدّسمة التي احتواها. وقد صرّح سعد الله بذلك في تقديمه للطبعة الثالثة قائلا: " لو طلب إليّ أن أختار تسمية جديدة لهذا الكتاب، لاخترت له اسم (الموسوعة الثقافية الجزائرية)؛ ذلك أنّ أجزاءه الجديدة، تضفي عليه هذا الطابع عن جدارة..." [3].

لقد كان وراء هذا المنجز العلمي دواع وأسباب، أوردها المؤلّف في مقدمة كتابه [4] :

. نقلَ شهادة المرحوم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عام (1960 م)؛ بأنّ أبا القاسم سعد الله " مشغوف إلى حدّ الافتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور".. أشار إلى أنّ " المستعمرين الفرنسيّين، قد بثّوا طيلة احتلالهم للجزائر، بأنّه لم يكن لأهلها ماض سياسيّ، ولا ثقافي. و زاد إهمال الدارسين العرب والمسلمين لتاريخ الجزائر من حرصي على البحث والتنقيب. فالجزائر قد ظلمها أعداؤها، وأصدقاؤها على السّواء..".. لم يجد المؤلف من أولى أهمية لموضوع تاريخ الجزائر الثقافي؛ سواء مّن تخرّجوا في المدارس الفرنسية، إذ لم يكن الكشف عن دور الجزائر الثقافي جزءا من برنامجهم. أو ما كان من إهمال حركة ابن باديس لهذا المحور في مدارسها. وأرجع السبب في ذلك إلى قلّة المصادر، وقلّة المتخصّصين في هذا الجانب المعرفي.

أمّا هدفه من هذا التصنيف، فهو " إنتاج عمل، يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية، والإنسانية عبر العصور "[5]. فقد تمكّن سعد الله، من رصد مجموعة كبيرة من الأعمال العلمية، ونقدها، أغلبها ما يزال مخطوطا. وقد اكتفينا في هذه المقال بالجزئين الأول والثاني، المتعلّقين بالعهد العثماني؛ عرض في الأول للجانب النظري من هذا التاريخ الثقافي. وفي الثاني كانت دراسة الإنتاج الثقافي من أدب وغيره.

الجزء الأول ضمّ ستّة فصول؛ الأوّل لتراث القرن التاسع الهجري، الثاني للتيارات والمؤثرات. الثالث للمؤسّسات الثقافية، الرابع للتعليم ورجاله، الخامس للعلماء. والسادس للمرابطين والطرق الصوفية.

الجزء الثاني حوى ستة فصول أيضا؛ الأوّل للعلوم الشرعية، الثاني لعلم الكلام والتصوف والمنطق. الثالث لعلوم اللغة والنثر الفني، الرابع للشعر. الخامس للتاريخ والتراجم والرحلات، والسادس للعلوم والفنون.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

أمدّنا المؤلّف بصورة مختصرة عن هذا العهد في مقدمته [6] ؛ هذا العهد، الذي كان في عمومه غير مستقرّ. إلاّ أنّ جانبا مضيئا له، يكمن في أنّ للعثمانيين الفضل في إنقاذ بلدان المغرب الإسلامي من الاحتلال الصليبي. وقد ظهرت سلبية هؤلاء الحماة في المجال الثقافي خاصة؛ علّل لذلك بعدم تشييد جامعات تحافظ على اللسان العربي، وتخرّج العلماء الأكفاء.كذا عدم تحدّث الحكّام بالعربية، وعدم تذوّقهم أدبها، إلى غير ذلك من الأسباب.

خلص سعد الله، إلى أنّ لا غرابة بعد الذي عرفناه، أن لا يلقى العلماء، والشعراء التشجيع على الإنتاج من قبل العثمانيين في عصر، كان فيه الإنتاج الأدبي، والتاريخي، والعلمي محصورا في بلاطات الحكّام.وقد لاحظ أنّ هذا الجمود الثقافي، لم تختصّ به الجزائر فقط، وإنّما عرفته البلدان الأخرى أيضا.

وأوقفنا على حالة هذه الثقافة خلال هذه الفترة، والمؤثرات العديدة فيها. انتقل بعدئذ للحديث عن ظواهر محدّدة، غلبت على الحياة الفكرية، أبرزها التّصوّف المحرّف، وكثرة الشروح والحواشي، والثقافة الموسوعية. أشار إلى أمر جوهريّ وهو الإبداع في التأليف؛ الذي قال عنه إنّه كان قليلا للأسباب التي أوردها قبل. و أنّ إنتاج العلماء كان في جميع الفروع العلمية تقريبا. ونبّه إلى مسألة مهمّة، تمثّلت في ظاهرة الجمع بين عدّة علوم في مصنّف واحد، وهذا ما جعل سعد الله، يستصعب أمر تصنيف مؤلفات هذا العهد، وتبويبها.

وما دام موضوع هذه المقال، منصبّا على التراث اللغوي والأدبي، فإنّنا سنحيل القارئ إلى مضامين الفصلين الثالث والرابع، من الجزء الثاني؛ الذي تناول من خلالها ما خلّفه علماء العصر العثماني من مصنفات في هذا الباب. الفصل الثّالث [7]خاصّ بعلوم اللغة والنثر الفنّيّ؛ عرض فيه لعلوم اللغة ونحوها، البلاغة والعروض، ثم فنون النثر (الشروح الأدبية، التقاريظ، والإجازات، والعقود، الرسائل، الوصف، الخطابة، القصص، والمقامات). وفي نهاية الفصل ترجم لأديبين هما: أحمد المقري، وأحمد بن عمّار. الفصل الرّابع[8] خاصّ بالشّعر؛ بدأه بمدخل عام، ثم عرّج على الشّعر الديني، فالشّعر السّياسيّ، والشّعر الاجتماعيّ، ثمّ الشّعر الذّاتيّ. واختار الشّاعر (ابن عليّ) ليخصّه بترجمة. وخاتمة الفصل كانت للشّعر الشّعبيّ.

ووجدناه في الفصل الأوّل من الجزء الأوّل، يمهّد بحديث عن تراث القرن التّاسع الهجري، الذي كان من جزئياته بعض المسائل المتعلّقة بالأدب واللغة[9].

منهج المؤلّف في قراءته لهذا التراث:

سرد سعد الله في مقدمة كتابه[10] قصّة منهجه؛ فما هي يا ترى ملامحه ؟.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

قال: " لم تكن مهمّة البحث في المظانّ، تهدف إلى جمع المادة، وحشرها في الكتاب، بدون رأي، أو تمحيص، أو ترتيب. فالكتاب...يدرس الظواهر، ويحللها، ويعللها، كما يدرس الإنتاج، ويصنّفه، ويقيّمه، ويناقش المؤلفين آراءهم، ومواقفهم، ويصحح بعض الأخطاء ".

وبناء على ذلك، كيف ستكون مادة الكتاب؟ يقول: " مادة الكتاب ... ليست كتلة جامدة من الحوادث التاريخية، أو تجريدة إحصائية للإنتاج...ورغم أنه كتاب لتاريخ الثقافة، لا يكاد يستغني عن أثر من الآثار، فإنّه ليس مجرّد حصر لهذه الآثار. على أنّه تجدر الملاحظة إلى أنّ بعض الآثار، لم نتمكّن من الاطلاع عليها، والقراءة عنها، فاكتفينا بوضعها في مكانها من فصول الكتاب، انتظارا للكشف عنها...". كيف نظر سعد الله إلى التراث ؟.

يقول: " لم ينظر الكتاب إلى التّراث نظرة تقديس؛ فأنا لم أكتبه لكي يكون عملا، يرضي العواطف الجهوية، أو يدغدغ المشاعر الوطنية، أو يهدهد النزعات الدّينية. ذلك أنّ بعض الإنتاج مليئ بالخرافة، وبعضه مكتوب في مدح رجال لا يستحقّون المدح، وبعضه كان منحطّ الأسلوب، وبعضه كان أصحابه يعبرّون عن موقف المحرومين والموتورين. ولكن ذلك كلّه كان تراثا على كلّ حال؛ فهل نكتفي بالإشادة به، وبأصحابه، كما فعل معظم من تعرّضوا له حتى الآن ؟. لا نعتقد أنّ ذلك سيكون في صالح هذا التراث نفسه، كما أنّنا لا نعتقد أنه سيكون في صالح الجيل الحاضر، والجيل الصاعد الذي يرغب في معرفة الحقيقة ".

يؤكّد المؤلف على أنّ مصنّفه حاول فيه جمع شتات التراث الموزع بين خزائن ومكتبات داخل الوطن وخارجه، ودراسته وفق المنهج الذي حدّد معالمه الكبرى في نص مقدمته، الذي أوردناه سابقا. هذا المنهج الذي زاده وضوحا الدكتور عبد الكريم عوفي بقوله: " منهج الأستاذ في الكتاب عامة...هو تاريخي، وصفي، تحليلي "[11].ويؤكّد ذلك بنصّه على أنّ سعد الله " توسّع في عرض محتويات المخطوطات، والكتب المطبوعة، من حيث موضوعاتها، وأبوابها، وفصولها، مشفوعة بالمناقشة، والنّقد الهادف " [12] .

أشار المؤلف إلى أنّ كتابه " في حدّ ذاته، عبارة عن دراسة للمصادر، ولا سيما الجزء الثاني منه "[13]. هذا الجزء؛ الذي قدّم فيه الإنتاج العلمي لمجموعة من العلماء، بالاعتماد على مصادر مخطوطة خاصة، وفق المنهج الذي رسم معالمه في مقدمة كتابه، خلاصته أنه جمع بين الاستقراء، والوصف والتحليل، والتاريخي، والإحصاء، والمقارنة. يعثر القارئ إذن على مادة علمية، مستقاة من مصادر مخطوطة ومطبوعة، مصحوبة بآراء ونظرات، مع تحليل، وبرهنة وتعليل.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

وقام بتصنيف الإنتاج العلمي . مع صعوبة ذلك، لتداخل كثير من المعارف في الكتاب الواحد . ودراسته وتقييمه. ولم يكتف بذلك، بل ناقش آراء المؤلفين، التي استدلّ بها في كلّ موقف، وصحّح ما رآه خطأ. والمؤلف لا يمكنه إصدار حكم من الأحكام في مصدر ما، إلاّ إذا اطّلع عليه، أو قرأ عنه.

وصرّح كذلك أنّ كتابه لم ينظر إلى التراث نظرة تقديس؛ فلا يحتمل النقد، ولا يقبل المراجعة، بل لا بدّ من تقبّل التراث بكلّ ما حوى من نقائص، والتزام الموضوعية في دراسته.

إنّ موضوع مقالنا هذا، محصور في منهج قراءة التراث اللغوي، والأدبي في موسوعة (تاريخ الجزائر الثقافي). وسوف نتتبّع ملامح منهجه، من خلال ما جاء في الفصلين الثالث والرابع من الجزء الثاني، اللذين ضمّا الحديث عن علوم اللغة والنثر الفني والشعر، وهذا بطبيعة الحال خلال العهد العثماني.

كان البدء بعلوم اللسان، التي قال عنها إنّ الجزائريين لم يكثروا من التصنيف فيها، واستثنى من ذلك علم النحو، لأنهم " تركوا لنا إنتاجا طيّبا فيه "[14] فهذا رأي عامّ انطلق منه سعد الله، سيوضّحه بالتحليل ضاربا الأمثلة، ومعلّلا للأحكام الشّخصية والغيرية. ذكر مجموعة من الأعلام، الذين برزوا في مجال الدراسات النحوية، من مثل عبد الكريم الفكّون، ويحي الشّاوي وغيرهما. ثم انتقل إلى تعداد المصنفات النحوية؛ فيحي الشّاوي، خلّف أربعة كتب على الأقلّ: حاشية على شرح المرادي، وشرح التسهيل لابن مالك، ونظم لامية في إعراب اسم الجلالة، ومؤلّف صغير في أصول النحو، جعله على أسلوب كتاب الاقتراح للسّيوطي[15].

وعن حاشيته على المرادي، يقول إنّها بلغت حوالي سبعمائة صفحة. وأبدى أسفه، بسبب أنّ الشّاوي " قضى عمره في شرح الشروح، وتحشية الحواشي، ولم يعمد إلى طرق أبواب جديدة، كما فعل أحمد المقري "[16]. نقل سعد الله عن المحبّي صاحب (خلاصة الأثر)[17]، رأيه في نظم الشّاوي للامية في إعراب اسم الجلالة، ونصه؛ إنّه " جمع فيه أقوال النحاة، وشرحها شرحا طيّبا "[18].هذا رأي مهمّ اعتمده المؤلّف، لأنّه صادر عن مترجم موثوق فيه، كما كان الأمر بالنسبة لمصنَّف الشّاوي في أصول النحو، الذي ذكر المحبّي حجمه، ونهجه عموما.

أمّا الفكّون [19] فعرف بالتصنيف في علمي النحو والصرف، تمكّن سعد الله من معرفة بعضها فقط، نحو: فتح المولى بشواهد ابن يعلى، وشرح على أرجوزة المكودي في التصريف [20]. ويسوق رأي الرّحّالة العيّاشي في هذا الكتاب الأخير. الذي أفاد منه . خلاصته أنّ " الفكّون قد أجاد الشرح والبحث، وأنّ شرحه يفضل شرح أبي عبد الله الدّلاّئي على نفس الأرجوزة ".

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

ويدعّم سعد الله هذا الرّأي . الذي يتبيّن من خلاله قيمة هذا الشرح . بمعلومة حول تاريخ إنهاء الشرح وهو (1048 هـ)، الذي اعتبره مرحلة النّضج الفكري لهذا العلم. فهذه قيمة أخرى تحسب لمصنَّف الفكّون [21] .

برزت عناية الجزائريين بهذا المجال اللغوي، من خلال أعمالهم الكثيرة الموضوعة على الآجرومية وألفية ابن مالك؛ ضرب لذلك مثلا بمحمد الصّبّاغ القلعي، الذي وضع شرحا على الآجرومية أسماه (الدّرّة الصّبّاغية في شرح الجرّومية). ويبدو أنّ سعد الله، اطّلع على هذا الشرح، فقد قيّمه بقوله: " هو عمل يدلّ على سعة معلومات صاحبه في علم النحو...وقد أشار الصّباغ إلى ظروف تأليف (الدّرّة) وطريقته [وذكر النص]...أمّا عن طريقته، فقال إنّه كان يهدف إلى وضع تقييد على الآجرومية (لنفسي، ولمن هو مبتدئ مثلي من أبناء جنسي...وتكلّمت على إعرابها، ولم أر أحدا أعربها قبلي)..." [22]. هذه قراءة أوّلية لمخطوط يبدو مهمّا حسب ما أورده سعد الله. والأهمّ أنّه لم يبد برأيه فيه إلاّ بعد اطّلاع.

ومن النّحاة الّذين ذكرهم، محمّد بن يحي البجائي، شارح شواهد القواعد الصغرى في النحو لابن هشام الأنصاري. اطّلع عليه سعد الله في نسخته المخطوطة، وراح يقدّم لنا ما أثبته البجائي من أسباب التأليف؛ فجاء بجزء من نصه، يدلّل فيه على الغاية من الشرح، مع التلميح إلى اختصار الشرح، والعلّة في ذلك.المؤلّف جاء بتلك الفقرة من المخطوط، ولم يقدّم رأيه فيه، لكن قارن بين هذا الشرح وشرح آخر للبجائي على شواهد كتاب شذور الذهب، من نحو ما جاء في المقدمتين قائلا: " عبارة البجائي في مقدمته، لا تختلف كثيرا عن عبارته في الشرح السابق..." [23]. وليكون موضوعيا ساق النص الذي جاء فيه إشادة بكتاب شذور الذهب، وتبيان غرض الشرح، ثمّ التّصريح بعناوين مصادره في الشرح [24] .

وهو لا يغفل الإحالة على مصادره، التي هي في الغالب العناوين نفسها مخطوطة، فينصّ على مكان حفظها، ورقمها، وعدد أوراقها، وسنة النسخ، واسم الناسخ إن توفّر ذلك. إضافة إلى كتب الصرف والنحو، وشروح الشواهد، والشروح والحواشي على بعض كتب النحو، كان التّأليف في تراجم النّحاة. فقد وجد سعد الله بعد تمحيص علمين فقط، اهتمّا بهذا المجال هما بركات بن باديس، وتلميذه أحمد بن قاسم البوني. فالأوّل سمّى كتابه (التّنقيح في التعريف ببعض أحوال رجال طالعة التّصريح على التّوضيح)؛ اقتصر سعد الله على إيراد جزء من خطبة هذا المخطوط، ثمّ علّق بقوله: " الظّاهر أنّه جمع فيه تراجم مختصرة لعلماء النحو، الذين يتعرّض لهم أثناء تدريسه لهذه المادة في قسنطينة، ومنهم

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

حوالي ثمانية وعشرين ترجمة، مثل المازني، وابن الحاجب...إلخ "[25]. ويعلّل لحكمه على تراجم ابن باديس كونها مختصرة، بعدد ورقات المخطوط الذي اطّلع عليه، فهي لا تعدو ثماني وعشرين.

وختم بما ألّف في علم اللغة المحض، مصرّحا بقلّة المهتمّين بهذا المجال، منهم محمد بن بدوي الجزائري المعسكري، واضع كتاب (الارتضاء في الفرق بين الضاد والظاء)، الذي قال فيه إنّه لخّص من خلاله كتاب أبي حيّان الأندلسي الموسوم بـ (الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد). وأفادنا سعد الله ببعض المعلومات عنه، بسوق جزء من مقدمته، فيه تصريح بطبيعة المؤلَّف، ومنهجه، وعنوانه [26].

وفي باب اللغة أيضا، التأليف في علمي البلاغة والعروض؛ ففي البلاغة اشتهر نظم عبد الرحمن الأخضري المسمى (الجوهر المكنون) . وهو في علمي البيان والمعاني . كذا شرحه الموضوع على هذا النظم. ويبدو ذلك من عبارة سعد الله: " كما كانت أعمال عبد الرحمن الأخضري في المنطق والحساب محلّ درس وتعليق من بعده، كان نظمه وشرحه في البلاغة أيضا "[27]. وشرحه هذا . كما وصف . أوسع من (تلخيص المفتاح) لجلال الدين القزويني. أثبت هذا الحكم دون تفصيل [28] .سرد سعد الله أسماء بعض الأعلام الذين شرحوا نظم الأخضري جزائريين ومشارقة، مثل أحمد الدّمنهوري من المشارقة، ومحمد بن محمد الثّغري من الجزائريين، الذي عنون شرحه بـ (موضح السّرّ المكنون على الجوهر المكنون). وقد توقّف مطوّلا عند هذا العمل، إذ نقل إلينا بدءا رأي الثغري نفسه في المنطومة التي قام بشرحها: " أخبر الثغري أنّه كان مقتنعا بأنّ منظومة الأخضري من أجمل ما كُتب في علم البيان..." [29].

لخّص لنا سعد الله بعض ما جاء في نص الثغري، الذي أورده بلفظه، وعلّق على النّصّ بقوله: " سار الثغري في شرحه على ما وعد، فأظهر فنون البلاغة، وعالج موضوعاتها بتفصيل وتبسيط، حتى جاء الشرح في حجم ضخم، بالإضافة إلى أنّه عرّف فيه بالأخضري تعريفا وافيا. وممّا يلاحظ أنّه لم يبوّب الشّرح، وإنّما اتّبع تبويب النّاظم نفسه، معتمدا في ذلك وحدة البيت والباب والفصل. ويبدو أنّ شرح الثغري كان كثير التّداول بين العلماء، ويتبيّن ذلك من كثرة النّسخ منه " [30].

اعتمد سعد الله في قراءة النّصّ على نسختين خطّيتين، وهذا مسلك محمود؛ فلا يخفى على القارئ أنّ صاحب هذه الموسوعة محقق متمرّس، ولتكون القراءة موضوعية، فلا بد من اتّباع ذاك المنهج. وقد ركّز في قراءته على الشكل والمضمون.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

انتقل بعد دراسة الإنتاج الفكري في علوم اللّسان، إلى الإنتاج الفكري في فنون النّثر. وقد انطلق من حكم عام، تمثّل في أنّ الأدب الجزائري خلال الفترة العثمانية، عرف إنتاجا وافرا في فنّ الرّسائل والتّقاريظ، وعلى العكس من ذلك نجد ضآلة في القصص والخطب [31]. إنّها ظاهرة في أدبنا نبّه إليها المؤلّف، وبناء على ما أورده فيكون نقده للكمّ دون الكيف.

تحدّث عن أوّل الفنون النثرية وهو الشروح الأدبية، التي قال عنها إنّها كانت كثيرة، وسرد بعض الأمثلة لذلك دون تفصيل، منبّها القارئ إلى أنّ أصحاب هذه الأعمال رموا إلى " خدمة الأدب واللغة، والبلاغة مظهرين بلاغتهم القلمية، والخيالية، ومحفوظاتهم، وذوقهم الفنّيّ " [32].

هذا حكم آخر سوف يفصّله؛ لقد بدأ بشرح أحمد بن سحنون الرّاشدي على قصيدة سعيد المنداسي . المسمّاة بـ (العقيقة)، موضوعها مدح الرسول . صلّى الله عليه وسلّم . وصحابته الكرام . رضي الله عنهم . عنونه بـ (الأزهار الشقيقة المتضوّعة بعرف العقيقة). قال عنه سعد الله: هو شرح ضخم " بذل في هذا الشرح جهدا، لا يعرفه إلاّ من وقف عليه، واطّلع على ضخامة العمل " [33] .

و وجد المؤلّف ضرورة في وضع المتلقّي في جوّ القصيدة المشروحة، حتّى يتمكّن من إقناعه بالنتائج التي سيقدّمها له. فقصيدة العقيقة مكتوبة بالعامّية الفصحى، أو الفصحى العامّية، لغتها ومعانيها معقّدة، فاحتاجت إلى توضيح. أمّا غرض المنداسي من نظم قصيدته بالعامّية، فـ " تقريب معانيها من العامّة، مع الاحتفاظ بمستوى لغويّ وأدبيّ وتاريخيّ، لا يدركه إلاّ الخاصّة " [34] . أمّا شرحها فكان بدافع حفظها . لأنّ ابن خلدون ألقى باللاّئمة على أهل المغرب، لإهمالهم رواية أشعارهم، فضاعت تبعا لذلك أنسابهم . وحلّ ألغازها، وتقريب معانيها. سرد سعد الله بعدئذ ظروف الشّرح؛ منها ما دعاه إلى التّوقّف عن إتمام التّخريج، وبعدما عاود الشّارح العمل في تصنيفه، انتقل من التّطويل إلى الاختصار، لأسباب نفسية بالدّرجة الأولى، فخرج الشّرح في قسمه الأوّل " مطوّلا مليئا بالاستطرادات الأدبية واللغوية... ومختصرا مجرّدا من الزّوائد في القسم الثّاني "[35].

ومن ملاحظات المؤلّف على هذا العمل الضّخم . الذي رجع إليه في نسخته المخطوطة بخطّ مؤلّفها . أنّ " ابن سحنون [رغب في] أن يكون في مستوى الشاعر في العلم والأدب، فملأ شرحه بالأخبار الأدبية والتاريخية، سيما تاريخ الإسلام الأوّل الذي تعالجه القصيدة. ولم يقسّم الشّرح إلى فصول، وإنّما شكّل كلّ بيت من العقيقة قسما أو فصلا مستقلاّ؛ فهو يذكر

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

البيت، ثمّ يشرحه لغويا وأدبيا، ويأتي له بالشّواهد والأخبار، وهذا سبب الاستطراد والطول..." [36].

لقد بدا لسعد الله أنّ الشاعر حاول تقليد صاحب القصيدة، من خلال مجموعة من المعطيات في النّص المشروح. واستقرأ منهج الشّارح الذي أفضى به إلى القول، أنّ ذلك هو السّبب في جعل الشرح يطول. وأضاف أنّ " مطلع الشرح [يدلّنا] على ذوق ابن سحنون ومراميه...وهو طالع يبتعد عن طوالع الشروح الفقهية ونحوها؛ فـ (الأزهار الشقيقة) إذن يعتبر كتاب أدب ونقد وبلاغة في بابه لتخصّص صاحبه في ذلك. وتؤكّد التّقاريظ التي وردت عليه هذا الاتّجاه " [37] .استقرأ المؤلّف افتتاحية الشّرح، وأبدى برأيه فيها. ومن هذا المضمون إلى مسألة خارج التّأليف، تتعلّق بما قيل في الشرح، للحكم على قيمة الكتاب العلمية.

وفي فنّ المقامة ساق بعض العيّنات، من ذلك مقامة أحمد البوني الموسومة بـ (إعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار) ضمّنها صاحبها الكلام عن " علاقة العلماء بالسّلطة والاستنجاد بصديقه مصطفى العنّابي، والشّكوى من وشايات أهل العصر " [38] . وبعدما عرّفنا سعد الله بموضوعها راح يذكر شيئا من خصائصها؛ قال: " هي بدون شكّ، تقرب في أسلوبها وطريقتها من أسلوب وطريقة المقامة المعروفة، وفيها كثير من الخيال والإغراب والتّهويل، ولكنّها مع ذلك تقصّ أمرا واقعا وتذكر أشخاصا حقيقيّين " [39].

ساق لنا جزءا من نصّ هذه المقامة، تمثّلت في بدايتها، حتّى نقف على حقيقة الأحكام الصّادرة في حقّها. وعلّق في ختام النّص بكون " مقامته...ظهر عليها الطّابع الأدبي القويّ، والعبارة المتينة، ولكنّها تظلّ تفتقر إلى عنصر الرّمز والخيال البعيد " [40]. هذه خلاصة قراءة سعد الله لهذه المقامة، التي قدّمها في البدء، وهي أنّ هذا العمل أقرب مثل إلى المقامة التّقليدية [41] .

وفي المقابل يتناول نماذج أخرى للمقامة، كتبها الرّحّالة الطبيب عبد الرّزّاق بن حمادوش؛ أشار إلى موضوعها وعناوينها، وملخّص محتواها. واختار جزءا من إحدى مقاماته الثلاث المشار إليها، الموسومة بـ (المقامة الهركلية). عدّ سعد الله " مقامات ابن حمادوش، من الوجهة الفنّيّة المحضة...أكمل وأفضل، إذ لا ينقصها عنصر الحكاية، ولا الخيال ولا طرافة الموضوع ولا الرّمز. ثمّ إنّها تجمع النّثر إلى الشعر..." [42].

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

لقد أعطى المؤلّف وجهة نظره في عمل ابن حمادوش من خلال مقارنته بغيره من الأعمال في باب المقامة، ولوقوفه على توفّر العناصر الفنية في مقامات ابن حمادوش عدّها أحسن من غيرها.

تحدّث عن الشعر في الفصل الرابع، هذا الشعر الذي قال فيه: " كان نسبيّا مزدهرا، وأنّ أغراضه قد تعدّدت حسب بواعثه، وهي الدّين والسّياسة والاجتماعيات والذات "[43].

قدّم لنا سعد الله صورة موجزة عن بعض الشعراء والأغراض التي نظموا فيها، استقاها من مصادر تاريخية وفقهية و وثائق عامّة. وأشار إلى ظاهرة إهمال الشّعر وأهله، مع التّعليل لذلك.

من الشّعر السّياسي ما قيل في الباي محمّد الكبير، الّذي عرف عهده حركة علمية وأدبية. فقد مدحه كثير من الشعراء لأنّه قام بأعمال جليلة استحقّت مدحهم. وكان هذا الباي قد غزا الأغواط ليمدّ نفوذه على جزء من الصّحراء الغربيّة، فراح أحد الشّعراء يسجّل رحلته هذه ويمدحه؛ هذا الشّاعر هو أحمد بن محمد بن علاّل القرّومي، الّذي اعتبر سعد الله قصيدته " حسنة [و] تدلّ على أنّ الشّعر لو وجد مناخا طيّبا لنما وازدهر " [44] . ثمّ مثّل ببيتين أشار فيهما إلى رحلة الباي، ومثّل بثلاثة أبيات أخرى من القصيدة نفسها يصف فيها جامعا شيّده هذا الباي في مدينة معسكر [45] . فالمؤلّف اكتفى بهذه القراءة السّريعة، أو لنقل العرض السّريع، الّذي شمل ذكر موضوع القصيدة، وقبل ذلك، كان مهّد لها بإيراد بعض الحيثيات التاريخية لفهم الموضوع. ومثّل بأبيات منها، وأطلق حكما عامّا (قصيدة حسنة)، لكن لم يوضّح فيما يكمن هذا الحسن.

غرض آخر تناوله سعد الله وهو الرّثاء، الّذي كان الرّصيد الشّعريّ فيه قليلا، وما وُجد لا يخرج عن رثاء بعض العلماء والشّيوخ. فحسب المؤلّف يكون هذا اللّون من الشّعر " أصدق إذا قيل في الشّيوخ و الأصدقاء و الأقارب " [46]. ومن الأمثلة التي ساقها مرثية القاضي محمد بن مالك في عبد الرّحمن الثّعالبي، عدّها سعد الله " قصيدة جيّدة...بدأها ابن مالك بالغزل جريا على العادة، وغزله فيها رقيق على كلّ حال. ثمّ تخلّص من ذلك إلى مدح الثّعالبي وأخلاقه..."[47]. وراح يذكر مزيدا من محتوى هذه القصيدة.ختم بإيراد ثلاثة أبيات من مطلعها، معلّلا اكتفاءه بذلك، كون النّسخة الّتي اعتمدها في الدّراسة رديئة، بسبب الأخطاء الكثيرة التي حوتها.

فسعد الله لخّص لنا المحطّات الّتي وقف عندها الشّاعر، وحكم عليها بالجودة، وبأنّ غزله رقيق، فجاء حكمه عامّا.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

الخلاصة:

بعد هذا العرض لمحطّات توقّفنا فيها عند قراءات بعض التراث اللغوي والأدبي الجزائري للمؤرّخ النّاقد أبي القاسم سعد الله، خلصنا إلى النتائج الآتية:

_ كشف من خلال قراءته عن وجه المحقّق الّذي يبدع في تأويل النّصوص، وإحيائها، وتوجيهها الوجهة الصّحيحة.

_ عاد إلى كتب التّراث بهاجس علميّ وحضاريّ؛ على اعتبار المخطوطات وثيقة تاريخية ثمينة، تعتمد عليها الدّراسات الرّاقية.

_ دراسة المخطوطات دراسة علمية، تمكّن من خلالها إصدار أحكام نقدية بنّاءة مؤسّسة.

_ تصحيح النّظرة إلى التّراث، كذا النّظرة إلى الفترة المدروسة.

_ لم تكن النّظرة إلى التّراث نظرة تقديس؛ إنّما كانت نظرة الأكاديمي المحايد " دون أن يصل فيما كتب إلى أحكام جازمة ومواقف محدّدة " [48] غالبا.

_ تبنّى مسؤولية القيام على هذا التّراث؛ بمعنى بعث التّراث، بجميع جزئياته الموزّعة عبر مكتبات مختلفة، وتنظيم المصنّفات تنظيما محكما ممنهجا، مع تحقيق بعضها، ثم قراءتها، وتقويم هذا الموروث وهي المرحلة الأكثر أهمية.

_ وجوده داخل حدود هويّة هذا التّراث، وهو ما يجعل القراءة تصطبغ بصبغة الموضوعية والعلمية. فقد صرّح من قبل، أنّ غيرنا لا يمكنهم فهم وثائقنا، ومخطوطاتنا أفضل منّا.

_ إنّ سعد الله . من خلال هذا الإنتاج العلمي الجزائري، الّذي قدّم حوله قراءة . قد فتح الباب أمام الباحثين لتحقيق ما لم يحقّق، ودراسة ما لم يدرس من هذا التراث الغنيّ. ولهم الحريّة التّامّة في أن يقدّموا هم بدورهم قراءات له، شرط التزام الموضوعيّة.

_ وقفنا على أحكام للمؤلّف، بعضها عامّ دون دليل، وبعضها مصحوب ببراهين. وهنا تكمن جمالية الموقف.

_ لا يفتأ سعد الله يذكّر بقيمة التّراث والحثّ على العناية به؛ فقد صرّح بقوله: " نعتقد أنّ ما ذكرناه من الرّسائل مع ذكر مصادره، سيكون حافزا للدّارسين الآخرين على المضيّ في طريق البحث والاستزادة "[49].

_ لمح المؤلّف في مقدّمة كتابه إلى أنّ المنهج الّذي أخذ به، لم يكن سرد عناوين المصنّفات، وإنّما سعى إلى دراستها وتحليل مضامينها، والتّعليل للظّواهر المختلفة؛ فكانت القراءة التاريخية متضمّنة المنهج الفنّيّ، لأنّ " حضور الفنّيّ مع التاريخي، وتظافرهما في إنجاز القراءة التاريخية للشّعر [والنّثر] ضمان رئيس كي

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

تظلّ هذه القراءة محتفظة بطابعها الجمالي الأدبي، والنّقدي في إطارها التّاريخي. وبذلك تبتعد عـن التّجريد والسّرد التّقريريّ، وتوحي بأنّ وراء الفكر المؤرِّخ حسّا نقديّا، وذوقا فنّيّا، ورصيدا جماليّا، يتمّ بواسطته تثمين النّصوص وتقويمها، وتحليل الرّوايات وجرحها أو تعديلها، وموازنة الأشعار ببعضها ومع غيرها، ومناقشة الأحكام الصّادرة من قِبل غيره حول الشّاعر أو إنتاجه؛ وللوقوف عند موضوعيتها أو ذاتيتها، وصوابها أو شططها " [50] .

الهوامـش:

[1]. ضيف عبد السلام، فن المقال عند أبي القاسم سعد الله. مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 15 ، ديسمبر 2006 م، جامعة باتنة، الجزائر: ص 239 .

[2]. سعيدوني ناصر الدين، واقع وآفاق الدراسات العثمانية بالجزائر عرض تعريفي ونظرة تقييمية. المواقف (مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ)، العدد 7 ، ديسمبر 2012 م، جامعة معسكر، الجزائر: ص 25 .

[3]. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي(1500 . 1830). دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصة، 2007 : ج1 / ص12 .

[4]. ينظر: سعد الله أبو القاسم، المرجع نفسه. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401 هـ/ 1981 م: ج1 / ص9 . 10 .

[5]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق.(ط. 1981 م): ج1 / ص9 .

[6]. ينظر: سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط.1981 م): ج1 / ص10 . 15 .

[7]. ينظر:سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج2 / ص163 . ص246 .

[8]. ينظر: سعد الله أبو القاسم، المرجع نفسه: ج2 / ص247 . ص330 .

[9]. ينظر: سعد الله أبو القاسم، المرجع نفسه: ج1 / ص69 . ص79 .

[10]. ينظر:سعد الله أبو القاسم، المرجع نفسه: ج1 / ص 17

[11]. عوفي عبد الكريم، تاريخ الجزائر الثقافي أوسع موسوعة ثقافية جزائرية تنتظر الباحثين. مقال مخطوط: ص 2 .

[12]. عوفي عبد الكريم، المرجع نفسه: ص3 .

[13]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج1 / ص24 .

[14]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص157 .

[15]. ينظر: سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص109 ، 158 . 161 .

[16]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 111.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

[17]. ينظر: المحبي محمد أمين بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. مكتبة خياط، بيروت، لبنان: ج 4 / ص 488 .

[18]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 161.

[19]. للدكتور سعد الله كتاب مستقل حول هذا العلَم موسوم بـ (شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السَّلفيّة)، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1 ، 1986 م.

[20]. خصّ سعد الله هذا الكتاب بدراسة مستقلة في المرجع السابق، فلينظر ص181 . 186 . وقد حققه الطالب ابن إبراهيم السعيد بجامعة الجزائر في إطار أطروحة دكتوراه عام 2004 م. ينظر: غربي مصطفى، المصنفات اللغوية في العهد العثماني بالجزائر دراسة في المنهج والمحتوى. دكتوراه في اللغة (مخطوطة)، جامعة وهران، كلية الآداب اللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، 1429 هـ/ 2008 م : ص 9 .

[21]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 160.

[22]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 162

[23]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 164.

[24]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 163 . 164.

[25]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 165.

[26]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 166

[27]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 167.

[28]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 167.

[29]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 167 . 168.

[30]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 169.

[31]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 174.

[32]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 174.

[33]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 174.

[34]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 175.

[35]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 175.

[36]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 176.

[37]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 2007 م): ج2 / ص 176.

[38]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج2 / ص 218.

[39]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج2 / ص 218.

[40]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج2 / ص 219.

[41]. ينظر: سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج2 / ص 218.

[42]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج2 / ص 220.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

[43]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج2 / ص 247.
[44]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج2 / ص 270
[45]. ينظر: سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج2 / ص 271.
[46]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج2 / ص 289.
[47]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج2 / ص 291.
[48]. سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق: ص 21 .
[49]. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. (ط. 1981 م): ج2 / ص 206.
[50]. ملاح بن ناجي، النّقد الجزائري الحديث دراسة في تحليل الأجناس الأدبية. رسالة ماجستير(مخطوطة)، جامعة وهران، كلية الآداب اللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، 1997 . 1998 م : ص 10 .